

الحضارة المصرية

في عهد الدولة القديمة

بحث للعلوم الأثرى اريك بيت

للأستاذ احمد نجيب هاشم

(تابع)

—>>><<<—

للمملكة القديمة نواة طائفة الكهنة المحترمين آخذة في التكون ولا نعرف شيئاً كثيراً عن تاريخ الملكية في عهد الأسرات الثلاث الأولى ؛ فإذا وصلنا إلى الأسرة الرابعة وجدنا مادة كثيرة نستطيع أن نكون منها صورة هامة عنها ، ومع ذلك يجب أن نذكر أن مادتنا هذه تتكون إلى درجة كبيرة من ألقاب ، وهذه قد تكون مضللة لاسيما وأن فرعون كان يندفعها عن سعة على المقربين اليه حتى اضطر أصحاب الوظائف الحقيقية أن يلجأوا في كثير من الظروف إلى إضافة كلمة الحقيقي بعد لقبهم تمييزاً لهم عن غيرهم (١)

الحكومة المحلية

كانت حكومة البلاد في يد إدارات محلية تشرف عليها الحكومة العليا وعلى رأسها الملك . وكانت الولاية هي الوحدة الإدارية ورأسها الأمير أو حاكم الاقليم ، وكان حاكماً وقاضياً ومديراً في ولايته وهو فوق ذلك الكاهن الأكبر لآلهتها المحلي ويتمتع بحرية كبيرة داخل حدود ولايته

على أن هذا الحاكم كان مسؤولاً أمام الحكومة العليا عن ضرائب ولايته ، وعن إدارته لها إلى حد ما . والظاهر أن انقسام البلاد إلى إمارات على هذا الشكل هو أثر لاتقسامها إلى قبائل قبل هذا التاريخ . وكان الأمراء يتوارثون الحكم في الولايات بعد موافقة الملك لأن الأرض نظرياً كانت كلها ملكه

الحكومة العليا

وليست معلوماتنا عن الحكومة العليا أكثر منها عن الحكومة المحلية إن لم تكن أقل ؛ فالملك هو الرئيس الأعلى ، وفي عهد الأسرة الثالثة بدأ فرعون يختار وزيراً لمساعدته في المسائل القضائية والإدارية ، ونجد أن ملوك الأسرة الرابعة يختارون وزراءهم من أبنائهم ، ثم أصبح فرعون يختار وزيره بعد ذلك من أسرة أخرى إذا شاء . وكان أكثر رجال المملكة مسؤولين لأنه كان الرئيس المباشر لأعمال الموظفين في الحكومة الفرعونية كافة من إداريين وكتبة من أكبرهم إلى أصغرهم ، وكان يشترط فيه أن يكون بارعاً في فن العمارة ، ومن أهم وزراء الأسرة الثالثة الوزير الحكيم « محتب » الذي برع في الطب والعمارة وشيد اليكه زوسر هرم سقارة المدرج

(١) برستد تاريخ مصر ترجمة الدكتور حسن كمال

دل قيام الملكية الواحدة في مصر على تقدم عظيم ، تقدم جعل كثيرين يعتقدون أنه راجع إلى إغارة شعب أجنبي أكثر حضارة ، ولكن المستكشفات الحديثة لا تؤيد هذا الرأي . أجل إن مقابر الأسرة الأولى تفوق بمراحل مقابر ما قبل الأسرات مباشرة ، ولكن يجب أن نتذكر أن هذه المقابر الأخيرة إنما هي مقابر عامة الناس ، ولم يثر على مقابر ملوك ما قبل الأسرات ، فلا يصح أن نقرن مقابر عامة الناس في عصر ما بمقابر ملوك في عصر آخر والحقيقة نفسها توضح لنا كيف أن الكتابة تظهر فجأة في الأسرة الأولى بشكل بعيد عن حالتها الأولية ، إذ كان الخط المستعمل هو الخط الهيراطيقي ، وهو كما لا يخفى اختزال للهيروغليفى فلا بد إذن أن يكون هذا الأخير مستعملاً قبل حكم الأسر بزمان طويل . وإذا قصرنا أنفسنا على نوع واحد من المقابر رأينا أن الانتقال من قبل الأسرات إلى عهد الأسرات حدث تدريجياً . ثم إن الأعمال الفنية في الفترة الأخيرة السابقة للأسرات ومن أهمها لوح « نارمر » الأردوازي ومقبض سكين جبل المرك تدل على أن فن الأسرة الأولى هو ثمرة نمو تدريجي لأهل البلاد أما وقد قامت الملكية فكان لابد للأنظمة الاجتماعية والسياسية أن تتطور إلى حد بعيد ، ولم يكن الملك المصرى في أول الأمر إلا رئيساً محلياً ممتازاً

وكان رئيس القبيلة حاكماً وكاهناً أكبر ومشرفاً لقبيلته فأصبحت هذه الوظائف كثيرة على الملك بعد أن اندمجت القبائل قهراً وطوعاً وأصبحت مصر مملكة واحدة ، لذلك اضطر أن يقتازل عن بعض هذه الوظائف ، ولكنه ظل نظرياً الكاهن الأكبر لكل إله ، فزاره في نقوش المايدي برأس كل الحفلات الدينية الهامة ، وإذا كان من المستحيل أن يوجد في مكانين في آن واحد كان لابد أن ينوب عنه كهنة ، وبذلك نرى في أيام

منقوشة نقشاً جيلاً ، ولا بد أنها كانت معتمدة على نفسها ولم تعد من طبقة الخدم ، لأننا نجد الأمراء يولعون برسم خدمهم على جدران مقابرهم . كذلك لا نعرف شيئاً عن مركز الكهنة الاجتماعى ، وإنما نعرف أن عددهم كان وافرأ ، وأنهم كانوا يعيشون على الهبات التى تقدم إلى المعابد ؛ وإن صح لنا أن نذكر تمييزاً عن الحياة فى المملكة القديمة فإننا نميل إلى القول بأن الأمراء وكبار الموظفين كانوا سعداء الحظ بينما كان الفلاحون تمسين فهم عبيد يلحقون بالضيق الواسعة ، وينتقلون من مالك إلى آخر كأنهم جزء لا يتجزأ عن الأرض ليس لهم حقوق على أسيادهم ، إذا ارتكب واحد منهم أقل هفوة فالجلد المضى عقابه ، وأشد من هذا وأنكى أنه لم يكن لهم سيد واحد بل اثنان ، فإذا جاء الفيضان وغطى ماؤه الأرض وأصبح العمل فى الحقل مستحيلاً لمدة طويلة كان على الفلاح أن يقوم بعمل آخر فى خدمة الملك ، إذ عليه أن يذهب لينقل الأحجار التى قطعها العمال من المحاجر الواقعة تجاه منف فيشتغل هو وزملاؤه تحت إشراف موظفى الحكومة ، وينقلون الأحجار فوق الحقول المنطاة بالمياه إلى حيث يريد الملك أن يبنى هرمه ، ولم يكن لهذه العملية نهاية فإن أول ما يفكر فيه الملك عند إخلائه العرش هو بناء مقبرة له ، فإذا أتته قبل أن يموت أخذ يحسن ويوسع فيها ، وإذا انتهت أيامه فهناك هرم خلفه لا بد من بنائه

وقد اهتم المصريون القدماء كما نفعل اليوم بفيضان النيل ، وهذا أمر طبيعى فإن سقطت الأمطار بنزارة على الجبال القائمة فى الجنوب الشرقى من مصر خافوا فيضاً عالياً يهدد حياتهم ، ويفرق جزءاً كبيراً من أراضيهم ، وإن قلت الأمطار توقعوا فيضاً منخفضاً يتلوه قحط ومجاعة فى البلاد ، فكانوا إذا اقترب وقت الفيضان يتحدثون عن النعم التى يقدتها عليهم « نيل طيب » ويدعون فى البحث عن الوسائل التى يجب عليهم اتخاذها وقت الخطر ، إذ كان كل واحد منهم يتأثر بهذا الحادث السئوى - كل حريص على محصوله - أما موظف الحكومة فعليه أن يحسب مقدماً مقدار ما ستأخذه الحكومة من محصول كل شخص ، وهذا هو الضريبة الرئيسية . كذلك كان يمد الحازمون من الحكام المدة لإطعام قراء إقليمهم إذا ما انخفض الفيضان ، ويخزنون الحبوب للمستقبل إن كان المحصول أكثر من المتوسط

(البقية فى العدد القادم)
 احمد نجيب هاشم

ويساعد الملك غير الوزير عدد من الموظفين ، وكانت أعمال خزانة الدولة فى يد بيت الفضة والشئونة الزوجية إشارة إلى الشئونة الملكية ، كذلك نسمع عن كنوز الآله أى الملك وكنوز ملك الوجه البحرى (وهذا من غير شك لقب قديم ظل بعد اتحاد لقطرين) ونقرأ أيضاً عن مراقبى بيت الفضة ومخازن الغلال . ويرجح أن تميزت إدارة القطر المصرى بين وجهيه لم تذهب إلى بعد من التجربة الانجليزية ، وقد حافظ المصريون على هذا الارتدواج الاسمى فى مصالح الحكومة ، مع أن وجهى مصر انضما معاً تحت إدارة واحدة ، وإنما فعلوا ذلك احتراماً للقديم الراسخ فى الأذهان (١) ولكن بالرغم من أن الملك اضطر أن يتنازل عن بعض وظائفه إلا أنه ظل ملكاً مطلقاً

من السهل أن تتبين من أيا هذا النظام وعيوبه ، ففى كان فرعون قوياً يمكنه أن يضع حداً لمطامع الأمراء فالنظام سليم لأن الحكومة فى كل إقليم كانت فى يد أشخاص خبيرين بالشئون المحلية . أما إذا كان الملك ضعيفاً فإن تلك السلطة الهائلة التى يتمتع بها الحكام المحليون تصبح خطراً على الدولة يهدد كيانها ، ولهذا السبب عيّن برجع سقوط الدولة القديمة فى نهاية الأسرة السادسة ثم إغارة الآسيويين أثر ذلك على الدلتا فقد أخذت قوة الأمراء تزداد تدريجياً على حساب الملكية

والآن علينا أن نسأل كيف كان نظام المجتمع فى ذلك العصر؟

الملك ومعه

كان على رأس الدولة الملك وبلاطه ، وقد كونوا بيروقراطية كبيرة تهتم بالألقاب اهتماماً عظيماً فنرى ألقاب البعض يقرب عددها من الثلاثين أو الأربعين أغلبها لا معنى له ، وبجانب هذه البيروقراطية المركزية نجد بيروقراطية أخرى مشابهة لها فى قسبة كل إمارة ، وكان لكثير من هؤلاء الموظفين أملاك واسعة فى ولاياتهم

الفلاحون

يفصل الموظفين عن الفلاحين بون شاسع ، لأن هؤلاء كانوا يشتغلون كمبيد فى مزارع الملك ، يحرثون الأرض ويروونها ، ويتمهدون الماشية والأغنام ، ولا نسمع عن وجود طائفة وسطى بين الطبقتين الآتقتى الذكر ؛ فإن كان هناك طبقة من هذا النوع - ولا بد أن التجار وأصحاب المهن والحرف كونوا طبقة - فإنها لم تكن غنية بدرجة تكفيها لأن تفاخر بفضائلها فى مقابر

(١) برستد : تاريخ مصر ترجمة الدكتور حسن كمال ص ٥٤